نزار مروه

« كوابيس بيروت » وغادة السمان

في عواصف الاحداث اللبنانية التي تتصاعد في حدتها فهنا، ليس هناك ما يدهش في ان يحجز انسان اسبوعا أو اثنين في بيت مجاور لمعارك الفنادق الشهيرة ، وحيدا تقريبا وفي ظروف حياتية مستحيلة .

لكن غادة السمان تجعل من هذه التجربة موضوعا مدهشا ومادة مبتكرة للاختبار الانساني والفني . فقد نشرت في مجلة « الاسبوع العربي » . وعلى مدى عشرين اسبوعا تقريبا ، يوميات هذه التجربة ، وتحت عنوان واحد هو « كوابيس بيروت » . وقد وصفت في هذه السلسلة وبنثر جميل ، تفاصيل حياة فتاة حجزت اياما طويلة في بيتها القريب من الهوليداي ان ، والفارق في محيط من الرعب والموت والقذائف . ولم يكن الى جانبها سوى العم فؤاد وابنه أمين والخادم ، وذكريات صديقها يوسف الذي قتل على حاجز ، والذي « يأتيها » والثقوب تزداد اتساعا في جسده مع اقتراب الموت وتصاعد الانفجارات .

تختلط في اليوميات عناصر انسانية مختلفة من الضعف البشري المبرر الى الصفاء الفكري .. الى التناقضات والتمزق النفسي . وقد سبق للفتاة ـ ولا يهمنا ان كانت هي غادة نفسها ام لا ـ ان امضت عشر سنوات في الدعوة للثورة .. كما انها كاتبة وفنانة ، وفي ذلك ما يضفي على اليوميات نكهة العمق والغنى والتنوع ، وينشرها على قوس يمتد من الثرثرة المحمومة الى القلق الوجودي عبر اشارات قاتلة الى اسباب ومسببي هذا النزيف الرهيب .

تأخذ الكوابيس امتدادها الحر الى عالم عنيف لاحدود لهمجيته. هناك الطبيب الناجح الذي مل محبسه فتحول الى قناص .. وسائق التاكسي الذي تخطى بركابه كل الحواجز ، حتى حاجز العقلانية حين توقف وقتل ركابه السبعة . لكن هذا العالم يصبح لاقط اصوات مرهفا ، كالرصاصة المتجهة الى هدفها ، حيث يتحول « الجسد الى جهاز في غاية التعقيد والدقة لتنقية الاصوات وفرزها » ، فتلتقط الفتاة صوت الاكورديون البعيد البعيد يعلن نشيد « الوردة هي ما يهم » الذي يتساوق وخطى القاتلين (لا القتلة) . (الاستدراك لغادة) .

وهكذا لم يبق امام غادة الا خطوة واحدة لتتجاوز شهادة المتفرج ومعاناته ولتشير باصبع الاتهام الى المسبب التاريخي لهذه اللاعقلانية.. الى الخطأ التاريخي ، لا الجغرافي ، الذي جعل « السماء تمطر حديدا لتقتل ابراهيم مرزوق » . ذلك ان وصف مشاهد الموت « الجميل » والموت الغبي خارج قضية التغيير غير مجد ، ويمكن ان تستخدم ضد الذين « حملوا السلاح من اجل ان تظل الحياة نقية وعذبة كوردة لا تذبل » ، وضد الذين استشهدوا في كفر قاسم !

وبالفعل كيف يمكن تصور هذا العالم السخيف حيث « ثمن قطعة فضية واحدة يساوي ثمن مكتبة ؟ » غادة تبشر بزوال هذا العالم من ذاكرة التاريخ حينما وصفت موت العم فؤاد الذي اصبح « مثل فزاع طيور يحرس حقلا من الرماد » . لقد مات العم فؤاد « وحوله فضياته الثمينة التي لفها بعناية ، وكان يرتدي ثوبه العثماني الرسمي العتيق ، وقد ملأ صدره بنياشينه العتيقة كأنه في انتظار زائر هام » ، وحقا لم يخلف الزائر موعده !

من الصعب الاعتقاد ان عشر سنوات من الكتابة للثورة تجعل الموت مريرا الى هذا الحد في مناخ الحد الادنى من الشروط الانسانية. ومن هنا تنبثق و « تزهر نبتة الكوابيس الوحشية » . فالموت الان يعني الخوف والحرمان من ضروريات الحياة اليومية ، الحرمان من الحنان والتواصل الانساني والحوار ... التي يصبح معها الموت محتملا وجميلا ، الحرمان من الجريدة والبوصلة والمعرفة والقراءة. لكن هذا الحرمان لا ينفي المقدرة على الكشف والاتهام ، حين نقرأ حكاية السائح اللبناني الوحيد في لبنان ، سليل المردة ، الذي ذهب ـ قبل هجرته ـ الى مرقد عنزة جده وحفر تحت روثها ، فلم يجد الا مزيدا من الروث ، لكن لم يجد احجار الاشعاع المسحور كما وعدوه . لقد وجد ذلك السائح الوحيد مفتاح القضية كلها في تل الزعتر و « حمراء » برج البراجنة وحزام النار حول بيروت ، وفي الجنوب ايضا حيث اعطى رغيفا معجونا بالشوك ومغطى ببقع السم يسد به جوعه . المفتاح وجده ذلك السائح الوحيد الذي شاهد انهيار سيرك الازدهار والمعجزة اللبنانية !

ان الخطأ ليس في « الموقع الجغرافي الخاطيء » ، بل هو في الموقع التاريخي الخاطيء . وعندما تكون غادة في الموقع التاريخي الصحيح ، فانها تشع بالومض الرومانسي الكشاف والحس الصادق بان دراما لبنان الراهنة تحمل في قلبها بذور تخطيه ومقومات لغده الافضل .

بعض « كوابيس بيروت » نستطيع قراءته على انه قصص قصيرة تقترب من الكمال في بنائها وفنيتها . هناك مثلا مأساة الممثل الذي يشبه الحاكم شبها عجيبا والذي يطلب منه ان يستلم الحكم بعد موت الحاكم والا تعرض للقتل . وقصة شاكر ، صاحب الدكان الذي تلاشى في حريق سوق سرسق ، شاكر الذي تحول الى « صياد » بعد ان كان المسلحون يصطادون غلة عمله المرهق . وهناك قصة الطبيبة النسائية التي تنتظر عبثا ان يتم استدعاؤها لصنع طفل حقيقي ، بينما تتشاغل هي بصنع تمثال من طين ، ثم تصبح الطبيبة « اما » عبر اصابعها الخلاقة وعبر معاناة سوريالية باهرة .

واذا كانت « كوابيس بيروت » نشيد رثاء لبيروت ، فانها ايضا رثاء لعالم باكمله ولعلاقات باكملها . وبذلك يمكن ان ترتفع الى مستوى تسجيل روحي لوجه من وجوه عذاب بيروت واشارة الى وجه من وجوه خلاص بيروت ايضا !

ملاحظة : كل النصوص الواردة بين مزدوجين هي لغادة السمان...

« الاخبار » البيروتية

١٠ تموز ١٩٧٦